خالق الآلهة

بقلم يوسف الابن

ساد القاعة صمت خانق ، وراح الفنان الشاب يقلب بنظراته الواجفة القلقة بين الصبيتين الماثلتين امامه ، وكتم التلامذة أنفاسهم منتظرين حكم استاذهم العظيم ، بينما كان الكهنة حوله يتهامسون بتخاذل وخفوت ، وعيونهم النهمة عالقة بالبشرتين البضتين الغارقتين بلون المرمر .

لم يكن (داميون) يتوقع ان يقف هذا الموقف عندما اختاره كاهن الهيكل لنحت تمثال (فينوس) . كان واثقاً من ان (ناتاليا) ستكون المختارة لينقل عنها جسم إلهة الجمال . فناتاليا صورة صارخة للجمال المثالي ، ولكن رأي الكاهن الأعظم غير رأي داميون ، وقد اقترح الكاهن ان تقام مباراة لاختيار أجمل عذراء في اثينا ، فتكون العذراء المختارة نموذجاً لتمثال (فينوس) ، وارادة الكاهن الاعظم لم تكن يوماً الا نافذة .

ومنذ هذا الصباح وداميون يستعرض أجساد العذارى وحوله تلامذته وكهنة الهيكل يعاونونه في مهمته ، وكان رأيه هو المصيب دائماً ، فلا تكاد احدى العذارى تخلع ملابسها وتقف امامه ، حتى يبتسم ملاطفاً ويقول بدعابة مرحة : « انني أهنيء من ستختاره الآلهة زوجاً لك ، ولكنني لا اراك تصلحين إلهة كما تصلحين زوجة وأماً . » فيقهقه الكهنة ، ويبتسم التلامذة بمكر وهم بنية استاذهم عالمون . وهكذا بقيت ناتاليا سيدة الموقف حتى اقبلت (نوريس) ووقفت بجانبها ... نوريس ابنة الكاهن الأعظم !..

كان داميون يتوقع كل شيء الا هذه المفاجأة ، لم يكن يصدق ان الكاهن الأعظم سيضحي بعفة ابنته في سبيل جعلها خليفة لفينوس .. عفتها نعم .. فقد اعتاد اهل (اثينا) ان يبيحوا العذارى للفنانين الذين يخلدون جمالهن تماثيل حية ، ولكن الطبقة العليا (طبقة النبلاء والأشراف) لم تكن تسمح لعذاراها بخوض ميدان الفن ، لا عفة وكبراً ، ولكن لايجاد فارق بين هذه الطبقة والطبقة السفلى (طبقة الشعب) ..

وها هو (ليدياس) -الكاهن الأعظم- يكفر بهذه العوائد ويتناسى كل اعتبار امام المجد الذي ينتظر خليفة فينوس ..

(نوريس) و (ناتاليا) ، لم تكونا سوى رمز للصراع بين (داميون) و (ليدياس) ، بين الفنان المتحرر والكاهن الجبار ، بين الفكر والسلطة ، بين حبيب الآلهة والمتاجر باسمها ... قدم الفنان حبيبته فقدم الكاهن ابنته ، وكان الصراع .. ولكل من المتصارعين أنصاره ومحبذوه ، وبذلك فقدت المباراة هدفها الأساسي الذي كان: (أية الصبيتين أصلح ؟) واتخذت اتجاهاً جديداً هو : (أي المتصارعين أقوى ؟) ..

ولكن الصراع لم يطل امداً ، فداميون لم ينل لقب (خالق الآلهة) بموهبته فقط ، فقد كان لتقدير (ليدياس) لهذه الموهبة أثره في جعل تماثيل داميون تخطر هنا وهناك في أثينا .. وباستطاعة ليدياس - بما له من سطوة ونفوذ - أن يخلق كل يوم خالقاً لآلهته .

- نعم ؟ على من وقع اختيارك يا داميون ؟

والتفت داميون فرأى ليدياس بجانبه ، وهو لم يكن ينتظر حضور الكاهن الأعظم في هذه اللحظة الحرجة اذ ان العوائد تقضي بنزاهة أمثال هذه المباراة ، وعدم تدخل أنداد الكاهن ليدياس .. ولكن متى كانت القوانين تشمل الكبار ؟..

أشاح داميون عن ليدياس ونظر الى تلامذته وعيناه تقولان : « ما العمل ؟ »

ما العمل ؟ وانى للتلامذة ان يتكلموا بحضرة ليدياس ، وأستاذهم العظيم يخشى النظر الى عينيه ؟

ولكن الحقيقة كانت صريحة جلية لا ينكرها ذو عينين ، وفي تماثيل ناتاليا المتناثرة في محترف داميون ما يوحي بان لا خليفة لفينوس سوى ناتاليا .. ولكن ناتاليا ليست ذات أب يستلم زمام الهيكل ، بل ليس هناك من يعرف لها أباً ...

وكانت الصبيتان تنتظران وقد أعياهما الوقوف ، وأخذ العرق يتلمع فوق جسديهما العاريين وبدت على وجهيهما عوامل النقمة والغضب والكره المتبادل ..

- ألم تكوّن رأياً بعد يا داميون ؟

قالها ليدياس بلهجة ممزوجة ببحة غامضة .. وثقل الصمت ، واكفهر الجو ، وأخذت الفتاتان تتأففان صامتتين وكل منهما تتلوى وتتايل خالقة من الأوضاع ما يظهر فتنة جسدها وسحره ، منتظرة الحكم الاخير لها او عليها ... وأغمض التلامذة عيونهم وهم بين عامل البهيمية المتوثبة والفن المجرد ، وراح الكهنة يتبادلون نظرات فيها ما فيها من العوامل ، وداميون وليدياس كفرسي رهان امام هذه المخلوقات الثائرة الافكار المجهولة المصير ..

- أنا بانتظار قرارك يا داميون ..

ورافقت كلمات الكاهن هذه المرة رنة تهديد صريح .. فتقدم داميون من الفتاتين وتأملهما ملياً ثم قال بعزم : « ناتاليا ... »

وقبل أن ينفرج ثغر ناتاليا عن ابتسامة الفوز ، وقبل أن تكمل لحية الكاهن رقصتها الغاضبة ، اضاف داميون : « ناتاليا ، لن تكوني خليفة فينوس .. »

وسمعت صرختان نسائيتان .. صرخة فرح انطلقت من أعماق نوريس وهي تلقي بنفسها على صدر داميون ، وصرخة يأس اختنقت في حلق ناتاليا وهي تخر مغمى عليها تحت قدميه ..

ومضى أسبوع وأثينا في لجج متخبطة من الاشاعات والأقاويل والآراء المتضاربة ، فقد توارت ناتاليا وقيل انها نذرت نفسها لـ (ديانا) واقتنت قطيعاً صغيراً تقضي معه أيامها في البراري والحقول ، وانصرف داميون الى عمله بتمثاله الجديد الذي سيهيئه للخلود ولكنه كان ينصرف كل مساء الى الحقول مفتشاً عن ناتاليا في أكواخ الرعاة فلا يعثر لها على أثر ، وانقسم فنانو اثينا الى فريقين منهم من حبذ قرار داميون ومنهم من سخط عليه ، اما الشعراء والفلاسفة فكانوا جميعاً ينعون الفن والروح ، للذين قتلها داميون بتهربه من الحقيقة ، ولكن اشاعة طغت على كل ذلك وشغلت سمر الناس ، فقد انقضى الاسبوع ونوريس تعود الى بيتها عذراء ... وكانت تلك الاشاعة مصدر تعزية وراحة لتلامذة داميون الذين كادت الصدمة تصدع ايمانهم بالفن الحقيقي .

ولكن الزمن الذي جعل قطرة الماء تفتح في الصخر ثغرة ، لم يعجز عن محو كل ذلك من أذهان الأثينيين ، ولم يطل التفتيش بداميون طويلا ، فقد انصرف بكليته الى تمثاله الجديد وطمس الاشاعة القائلة بأن نوريس ما تزال عذراء ، ورضي الجميع بهذه النهاية الا تلامذة داميون والفنانون والشعراء الذين ثاروا لاخفاق ناتاليا وضعف داميون .. وابتسمت نوريس للحياة والمجد المنتظر بعد ان أزال عنها داميون (عار) كونها عذراء ، واختفت تماثيل ناتاليا في قبو مظلم من أقبية داميون التي يودع فيها الصخور (الخام) .

نعم لقد عمل الزمن كل ذلك وان لم يستطع منع داميون عن ذلك الذهول الذي يعتريه كل مساء بعد انصراف نوريس . ولكن الحجرة لم تعجز عما عجز عنه الزمن ...

***

وأقبل اليوم العظيم ، وأثينا تستعد لذلك اليوم منذ شهور، فتمثال فينوس أقيم في باحة الهيكل وسيزاح عنه الستار يوم العيد .. وعيد فينوس في أثينا عيد الشباب والحب والمرح، عيد الشعر والفن والموسيقى، وتمثال فينوس مفتاح باب الخلود لناحته ، وأثينا تقدر داميون وتعتز بثمار مطرقته وازميله .

واجتمع الأثينيون حول التمثال المحجب ، وكلهم فضول وترقب وشوق، ومع ان اثينا بكاملها كانت في باحة الهيكل فلم يكن يسمع سوى انين الموسيقى.

ووقفت نوريس في الطليعة يحيط بها سرب من العذارى ، وحولهن القادة والجنود والفلاسفة والشعراء والاطباء ، ووقف الكهنة بجوار التمثال يحدقون الى الستار وفي عيونهم قلق وحيرة ، اما داميون فكان ساجداً امام التمثال وقد وقف ليدياس امامه يحمل اكاليل الغار وشارة النبل التي ستعلق على صدر داميون بعد أن يكشف الستار ويوقع التمثال امام الجماهير.. وبجانبهما وقف الفنانون يحدقون الى داميون بعيون تفاوتت فيها المشاعر والأحاسيس..

وارتفعت اناشيد العذارى ترافقها موسيقى ناعمة ، وتقدم القائد (هيروكليس) فحنى هامته امام التمثال وجذب الخيط الحريري ، وانكشف الستار .

ضج الجمهور بصيحات الدهشة والاعجاب وهم يرون الحجر انساناً، ورفع الكهنة ايديهم الى العلى يسبحون (جوبيتير) وسليلته ، وتعالى صداح الموسيقى ، وانحنى داميون ليوقع التمثال ويد ليدياس فوق رأسه ترتعش بأكليل الغار ..

وقبل ان يمس الازميل قاعدة التمثال، سمع الجمهور صوتاً يصيح: «توقف يا داميون ، مهلا يا ابناء اثينا .. » وتحجرت يد داميون ، وسكنت الرعشة التي كانت تستبد بيد ليدياس ، فقد كان الصوت صوت ناتاليا ..

كانت ناتاليا تمتطي صهوة جواد ابيض وتتقدم من التمثال والناس يفسحون لها الطريق كأنما قوة سحرية تحركهم ، وكانت مؤتزرة برداء ازرق فلا يبدو سوى رأسها ويديها الممسكتين بلجام الجواد . وكان الصمت مسيطراً على الجو ، وداميون وليدياس واقفين وفي التمثال الرخامي اكثر مما فيهما من الحياة ، حتى ليخيل الى الناظر انهما تمثالان ايضاً، ولكن تمثالان يرمزان الى الدهشة والخوف ..

– يا ابناء اثينا ، اتعلمون بمن تحتفون اليوم ؟ انكم لا تقدرون فناناً ، ولا تمجدون آلهة ، ولا تقدسون جمالاً ، انكم تصوغون بأيديكم سلاسل تقيدون بها أرواحكم وأفكاركم .. أهذه هي فينوس ؟ اهذه ابنة جوبيتير العظيم وربة السحر والجمال ؟ لا يا ابناء اثينا ، ان التمثال الذي تحتشمون له وتكللون ناحته بالغار ما هو سوى رمز لسيطرة المادة على الروح وتحكم النفوذ بالفن . لقد أقيمت مباراة لانتخاب من تمثل فينوس لابناء اثينا، فقدّم ليدياس ابنته وقدّم داميون حبيبته .. انا !.. وتقدم معنا من الفتيات من يفقننا فتنة وسحراً ، ولكن الأنانية والغايات كانت تسيّر المباراة ، وبذلك بعدت فينوس عن الموضوع تاركة اسمها ستاراً للمآرب وتحولت المباراة الى المعركة بين انانيتين .. السلطة والفن .. وربحت السلطة المعركة فكان هذا التمثال .

والقت ناتاليا الرداء فبدا جسدها عارياً ، وقفزت عن صهوة الجواد فوقفت بجانب التمثال بين صيحات الشعب وآهاته .

– مهلاً يا ابناء اثينا ، لا تلعنوا هذه العارية امامكم ، فهي لا تعرض جسدها ناراً لاثارة البهيمية ، بل فكرة مجسمة لحكمة الضمير.. هاكم جسدي الذي اذبله الالم وقابلوه بتمثال نوريس التي اصلح الفن فيها ما أفسده الزمن، فأي الجسدين اصلح لفينوس سفيراً !

وسكتت ناتاليا واتخذت الوضع الذي اتخذه التمثال وراحت تنظر الى

الجمهور بتحد . ثم صاحت بغتة : « ان سكوتكم لأبلغ جواب يا شعب اثينا ، وهذا التمثال، لقد فرضه عليكم الاستبداد فليحطمه الشعب . »

وسرى الهمس واللغط بين الجمهور ، واحتدم النقاش ، ثم ارتفع صوت أحد تلامذة داميون : « لتعش ناتاليا ، ليعش الفن ، ليسقط الاستبداد ، لتسقط فينوس الزائفة ، لا فينوس بعد ناتاليا..» وردد باقي التلامذة اقوال زميلهم ، وكان ذلك أشبه بشرارة القيت على برميل بارود ، فعادت ناتاليا الى صهوة جوادها ، وانقسم الشعب الى قسمين فاذا ناتاليا محاطة بالفنانين والفلاسفة ورجال الفكر والموسيقى ، وماتياس لم يجد من يقف بجانبه سوى العبيد .. والتحم الفريقان ثم تناثرا في شوارع أثينا يعمدون الحقيقة بالدم .

ولم يبق بجانب التمثال سوى داميون .

كان كالتمثال جموداً يحمل ازميله بيسراه ومطرقته بيمناه منحنياً على قاعدة التمثال وعيناه عالقتان بالمكان الذي انطلقت منه صرخة ناتاليا لأول مرة ، فقد لبث متحجراً منذ تلك اللحظة . ولكن الحياة اخذت تدب فيه شيئاً فشيئاً بعد انصراف الجمهور فتحركت يده اليمنى بالمطرقة واهوت على رأس التمثال ، وبعد لحظات اصبح التمثال قطعاً مبعثرة .

وأحس داميون يداً تربت كتفه بلطف ، واذ التفت رأى نوريس بجانبه تبتسم، فحدق اليها بشفقة وقال: «لن تكوني خليفة فينوس يا نوريس . »

اجابت : « بل لن أكون آلة لخدمة مآرب سواي يا داميون . »

وانحنت فقبلت جبهته وقالت : « لتبارك الآلهة يا ابن الآلهة . »

ولم يستطع داميون حبس دمعتين ..

وتوارى داميون وناتاليا عن عيون الاثينيين، وزالت سيطرة ليدياس وسادت اثينا سلطة الروح بعد عهدها المادي فكانت تلك الثورة بداية للحضارة الاغريقية ..

اما الى اين ذهب داميون، فقد كان مختلياً بناتاليا ينحت عنها اول تمثال للحرية.

يونس « الابن »